الفلاح المصرى يشكو اضطهاد طبقة الموظفين

كما دونها حكيم مصرى قديم على بردية منـذ اثنين وأربعين قرنا

[ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . . .
إعدلوا هو أقرب للتقوى]

سعيدة الأمة التى خلفت وراءها ماضياً مجيداً ، وتراثاً خالداً ، وتاريخاً حافلا، تستمد العون من معين عظاته ودروسه الخالدة ، عندما يقلب الدهر لأبنائها ظهر المجن ، وتنقطع بهم أسباب المعونة ، ووسائل الخروج من المآزق الحرجة ، وإذا كان لأمة من أمم العالم القديم أن تفخر بمالها من تراث تليد ومجد مؤثل فى الحضارة العالمية ، وبخاصة فى نشر المثل العليا فى الاجتماع والسياسة ، وسبل الحياة الحقة التى بنيت على العدالة الاجتماعية منذ انبثاق فجر التاريخ ، كان لمصر بلا نزاع لها قصب السبق فى ذلك المضمار ؛ إذ لا يعرف التاريخ حتى الآن حضارة مدونة محفوظة تضارع الحضارة المصرية فى القدم ؛ فقد انبثق فجرها منذ . . ٣٤ ق.م. تقريباً فى فترة من الزمن كان جل العالم الذى نعيش فيه لا يزال فى سبات عميق غارقاً فى لجة من ظلمات الجهل التى لم يفق منها إلا بعد أن أفاضت عليه مصر من نورها وعرفانها .

ولا غرابة إذن فى أن يقال عن مصر إنها المعلم الأول لدول العالم القديم ، على أن تاريخ المدنية المصرية يرجع إلى عهد أقدم بكثير من تاريخ ظهور مدنيتها المدونة ، وهذا العهد كان عهد حكم الآلهة كما زعم المصريون وعلى رأسهم الإله الأعظم الذى كان يمثل فى الشمس ، وكان عهده نموذجاً للحكومة العادلة التى قوامها الحق والصدق والمساواة . ولما انتقل الحكم إلى أيدى البشر ساروا على نهج الإله الأعظم فى حكمه العادل الذى كان رائده الحق لمدة طويلة من الزمان تبلغ نحو ألف سنة أو تزيد . وهذه الفترة يطلق عليها فى التاريخ المصرى عهد الدولة القديمة أى من . . ٣٤ إلى نحو . . ٢٤ ق.م. تقريباً ؛ غير أن عامل

الفساد كان قد بدأ يسرى فى جسم الدولة وئيداً فتنحى حكامها عن العدالة الاجتماعية ، فكان ذلك نذيراً بانحلال وحدة البلاد حتى رجعت سيرتها الأولى قبل توحيدها على يد مينا ، فصارت إقطاعات مستقلة عن العرش تقريباً . وقد أدى ذلك الانحلال إلى سقوط الدولة القديمة ، ومن ثم فشا الخراب ، وعمت الفوضى ، وقامت طبقة الفقراء والمضطهدين فى البلاد بثورة طاحنة أتت على الأخضر واليابس ، مطالبين بالعدالة وكشف الضر عنهم . وقد ظلت البلاد مقسمة إقطاعات مستقلة إلى أن قامت أسرة عريقة فى « إهناسية المدينة » وأسست حكومة ملكية ؛ غير أن سلطانها لم يكن يمتد على البلاد كلها إلا اسما .

والواقع أن حكم الإقطاع الغاشم كان متفشياً فى ذلك العهد إلى حد بعيد ، وكانت مظالمه واقعة على الفلاح والعامل بدرجة شائنة غاشمة . ولقد رأى رجال الفكر فى ذلك العصر الحالة المحزنة والظلم الفاحش ، والاضطهاد الشائن ، الذى كان يئن منه الفلاح وغيره من أهل الطبقة الدنيا ، ثم قرنوا تلك الحالة بما كانت عليه حكومة البلاد قبل أن يدب فى جسمها الفساد ، وتذكروا عهد حكومة الإله العظيم أيام كانت العدالة هى قانون البلاد ، وكلمته العليا . ولذلك تطلعوا إلى ذلك الماضى المجيد ، فكانت ذكرياته وما فيه من مثل عليا حافزاً لهم على المحاربة بألسنة أقلامهم الملتهبة حماسة بسبب ما وصلت إليه حالة البلاد من الخراب وانقلاب النظم الاجتماعية ، التى نشأت من ظلم طبقة الأغنياء للفقراء ، واستئثارهم بالثروة ، ووضعهم الفلاح والعامل فى مرتبة الحيوان أو أحط منزلة منه . غير أن بعض أولئك الكتاب كانوا يرجون ويؤملون صلاح هذا المجتمع الفاسد الذى انقلبت فيه الأوضاع الإنسانية ، وأخذ الفقراء ينقمون من أصحاب الثروة والجاه الذين ساموهم سوء العذاب . والواقع أن بعض أولئك الكتاب المفكرين كان مقتنعاً بإمكان السير نحو عهد جديد على أساس إيجاد جيل من الموظفين الأمناء العدول .

وطائفة أخرى رأت أن تحقيق ذلك قد يأتى على يد ملك عادل مخلص مجدد للمجتمع ، فعندما فحص رجال الطائفة الأولى الحياة رأوا وجوب التمسك بالمبادئ العملية للحياة الحقة ، التى يمكن أن تطبق على الحياة اليومية بانتقاء طائفة الموظفين على أسس متينة . وهؤلاء المفكرون هم الذين كانوا لا يزالون يؤمنون بوجوب سيادة الحق والعدالة الخالدة ، وهى التى كان يعبر عنها المصرى القديم

بكلمة « ماعت » . وقد استمروا على التمسك بأهداب ذلك الأمل ، ووجوب سيادة العدالة لأنها استطاعت السيطرة على الحياة المصرية قديماً .

وهذه الآراء قد عبر عنها فى مقال يمكننا أن نسميه الفلاح الفصيح ، أو شكاوى الفلاح المظلوم . ولحسن الحظ قد وصلت إلينا نسخة من هذا المقال الرائع كاملة غير منقوصة ، والبردية التى تحتويه موجودة الآن فى متحف برلين وكاتب هذا المقال جندى مجهول .

وقد وضع المؤلف بين أيدينا فى ذلك المقال الممتع مناقشة فى هيئة قصة رائعة جعلها فى شكل سلسلة من البحوث المؤثرة المسرحية عن خُلق الموظف المستقيم ، وما انطوت عليه روحه ، وما ينجم عن ذلك من إقامة العدالة الاجتماعية والادارية نحو الفقير المهضوم الحقوق ، فى ذلك العهد الذى طغى فيه الأغنياء حتى إن الرجل الفقير لم يكن ليجد قوة تحميه ممن هم أقوى منه . وقد كان ضمن المقترحات التى أشار بها أحد حكماء هذا العصر لعلاج طبقة الموظفين ، أن يجعل لكل موظف راتب عال وفير .

وسنرى فيما يلى أن هذا العلاج كان غير ناجع بمفرده ؛ لأننا سنجد فيما سيأتى ذكره أنه حدث بمشهد من القصر الملكى بجوار « إهناسية المدينة » عاصمة الملك إذ ذاك ، اضطهاد غاشم أقدم على ارتكابه موظف فاسد الأخلاق فى ضيعة مدير أملاك الفرعون فى ذلك الوقت . وهذا الحادث يدل دلالة قاطعة على أن الوظيفة ذات الراتب الضخم لا تغرس فى نفس صاحبها العدالة ، ولن تغنى الفقير شيئاً من اضطهاد رجال الحكومة له ، والعبث بالشىء القليل الذى يملكه .

ومما هو جدير بالذكر أن ترى ذلك المفكر القديم الذى كتب قصة الفلاح الفصيح ، وهو يجاهد ليظفر بالتغلب على تلك العقبة الكأداء ، عقبة الاضطهاد القائمة أمامه التى صارت منذ ذلك العصر من أعقد المسائل فى بلادنا بل فى الشرق ، حتى إن الأوربيين قد استساغوها لأنفسهم فى معاملتنا .

والواقع أنها مسألة لم يستطع حلها حلا مرضياً إلى الآن فى مصرنا الحديثة .

ومجمل هذه القصة أن فلاحاً من أهالى الفيوم فى منطقة وادى النطرون ، كان يقطن قرية تسمى « حقل الملح » وقد وجد أن مخزن غلال أسرته قد أشرف على النفاد ، فحمل على قطيع صغير من الحمير حاصلات قريته وسار به نحو العاصمة ، وكانت وقتئذ « إهناسية المدينة » ، وكان غرضه أن يستبدل غلالاً بحاصلاته هذه .

وكانت الحالة تحتم عليه أن يمر من طريق به منزل رجل يدعى تحوتى نخت ، وهو موظف صغير من موظفى شريف يدعى رنزى وكان يحمل لقب « المدير العظيم لبيت الفرعون » . وعندما لمح تحوتى نخت حمير ذلك الفلاح تقترب منه سولت له نفسه تدبير حيلة لاغتصابها بما عليها ، فأرسل على الفور أحد الخدم إلى منزله ، فجاء بصندوق مملوء بنسيج الكتان فأخرجه ونشره على الطريق العامة حتى غطاها كلها من حافة حقله الذى كان وقتئذ مزروعاً قمحاً إلى حافة الترعة التى كانت تقع على الجانب الآخر من الطريق . وكان ذلك الفلاح البرئ ، كما تقول القصة ، يتقدم فى سيره على الطريق العامة التى يسير فيها كل الناس ، وهى التى سدها تحوتى نخت المذكور بنشر النسيج عليها — ويلاحظ هنا أن العبارة الأخيرة تكشف عن غضب الكاتب وحنقه مما حدث — ولما كان الفلاح يخشى السير فى الماء اضطر أن يمشى فى الجهة الأخرى فى شريط ضيق لم يكن قد غطاه نسيج هذا الموظف بجوار حقل القمح .

وفى أثناء السير التقم أحد الحمير بضع سيقان من القمح ، وبذلك تهيأت الفرصة لتحوتى نخت الماكر للوصول إلى مأربه وكان يترقب ذلك عن كثب . وفى هذه اللحظة تقدم الفلاح إلى تحوتى نخت مقدماً له الاحترام والخضوع بألفاظ لا تحط من كرامته . فما كان من تحوتى نخت المذكور إلا أن قبض على الحمير واستاقها إلى منزله ، وكان الفلاح وقتئذ يصيح ويستغيث محتجا على ذلك الفعل فى أدب واحتشام ، ثم أردفه باحتجاج شديد ، وانبرى يقول له : إن طريقى مستقيمة ، غير أن أحد جانبيها قد سد ، فمن أجل ذلك سرت بحميرى على تلك الحافة .

أتغتصب حميرى لأن واحداً منها التقم ملء الفم من سيقان قمحك ؟ إنى أعرف رب هذه الضيعة ، فهى ملك رنزى المدير العظيم لبيت الفرعون ، وأعرف أنه هو الذى يقضى على كل سارق فى هذه الأرض . فهل أسرق فى ضيعته ؟ فلما أُحفظ تحوتى نخت من جسارة هذا الفلاح انتزع فرعاً من شجرة أثل وأخذ يضرب به الفلاح بدون رحمة ولا شفقة غير مبال بصياحه واحتجاجاته المتكررة ، واستاق كل الحمير إلى منزله ؛ واضطر الفلاح الشقى أن يمكث أربعة أيام يرجو فيها ردّ الحمير إليه بدون جدوى ، وكان يذكر له طول مدة بعده عن أسرته التى أشرفت على الموت من الجوع ، وهو لا يأبه لحاله . فلما رأى الفلاح المذكور منه ذلك صمم على رفع شكواه إلى المدير العظيم لبيت الفرعون نفسه ، وهو الذى

حدث فى ضيعته ذلك الاعتداء الصارخ . وزاد الفلاح شجاعة فى رفع شكايته إليه ما اشتهر به من حبه للعدل حتى صار مضرباً للأمثال فى عدالته . وبينما كان الفلاح يقترب من المدينة إذ قابله لحسن حظه مدير البيت العظيم المقصود خارجاً من باب ضيعته الواقعة على النهر وهو سائر فى طريقه ليركب فى قاربه الرسمى . وعند ذلك استطاع ذلك الفلاح بما أوتيه من أدب جم وسيطرة على أساليب البيان ، وتوجيه للأقوال الحسنة التى يليق التفوه بها فى مثل هذا المقام ، أن يسترعى أذن ذلك الرجل العظيم حتى يصغى إليه بضع لحظات فى أثناء مسيره لركوب قاربه ، فأرسل أحد خدمه لكى يعرف قصة ذلك الفلاح . فلما رجع ذلك الخادم وأخبر المدير رنزى بتلك السرقة التى ارتكبها تحوتى نخت لم يسعه إلا أن يبسط ذلك الأمر على موظفيه ليقولوا كلمتهم فيه ؛ فكان جوابهم على تلك السرقة هو الغرض الذى قصد إليه مؤلف هذه القصة ؛ فإنه يضع أمام القارئ صورة واضحة للمعاملة الشائعة التى كانت تتبع فى مثل شكاية ذلك الرجل الفقير فى الدوائر الحكومية ؛ إذ نجدزملاء مدير البيت العظيم قد انحازوا إلى جانب مرءوسهم تحوتى نخت السارق ، ولذلك كان جوابهم على المدير رنزى جواباً ملؤه الفتور قائلين : إن القضية يحتمل أن تكون قضية فلاح قد دفع ما يستحق عليه من الضرائب إلى رئيس أعلى خطأ ، وأن تحوتى نخت قد استولى على ما يستحقه من الضرائب بحق من هذا الفلاح . ثم تساءلوا بغضب : هل يعاقب تحوتى نخت بسبب أخذ قليل من النطرون والملح ؟ وعلى أكثر تقدير فى موضوع كهذا يصدر إليه الأمر بإعادتها وهو بلا شك معيدها إليه .

ومما يلفت النظر هنا فى طبقة أولئك الموظفين أنهم تجاهلوا الحمير التى سرقت كلية ، وهى التى كان ضياعها معناه موت ذلك الفلاح وأسرته جوعاً . وفى ذلك الوقت نفسه كان الفلاح واقفاً على مقربة يسمع بضياع ماله وخرابه المحتم . وهكذا تغاضى عنه رجال السلطة وتجاهلوا أمره . (أليست هذه الصورة المخزية تمثل الواقع الآن ؟)

وفى تلك الأثناء كان مدير البيت العظيم جالساً يفكر فى صمت . والواقع أن هذا المشهد يمثل لنا باختصار عصوراً من التاريخ الاجتماعى فى بلادنا . فمن ناحية يصور لنا طائفة الموظفين اللينى الجانب المتملقين وهم فى ذلك يمثلون

الطراز الغالب فى طبقة الموظفين . هذا من جهه ، ومن جهة أخرى نشاهد صورة ذلك الفلاح المنكود الحظ الذى لا صديق له ينصره ، وقد اغتصب متاعه ، ثم يتمثل فيه صورة الصيحة التى كانت أول مظهر لطلب العدالة الاجتماعية فى ذلك الوقت السحيق الذى يرجع إلى نحو خمسة وأربعين قرناً مضت .

وهذا المشهد الذى وضعه هذا الكاتب أمامنا فى صورة قصصية يعد من أقدم الأمثلة التى تدلنا على المهارة المصرية فى تصوير المبادئ المعنوية فى شكل مواقف ملموسة ، وهى التى صورت بشكل مدهش فى أقوال عيسى عليه السلام التى جاءت بعد ذلك بقرون عدة .

غير أن الفلاح لما رأى أن مدير البيت العظيم لم يحر جواباً على كلامه حاول مرة أخرى أن ينجى نفسه وأسرته من الموت المحقق الذى كان يتهددهم جميعاً بسبب الجوع ، فتقدم خطوة إلى الأمام وخاطب بفصاحة مدهشة ذلك الرجل العظيم الذى كانت قصته الآن بين يديه متمنياً له سياحة طيبة عند نزوله فى قاربه ، ثم لهج بشهرة مدير البيت العظيم فى فعل الخير ، وذلك ما كان يعلل به نفسه عندما رفع قضيته إليه ، فكان يقول له :

« إنك والدا ليتيم ، وزوج الأرملة ، وستر من لا أم له . دعنى أضع اسمك فى هذه الأرض فوق كل قانون عادل . يأيها القائد الذى لا يشوبه الطمع ، ويأيها الرجل العظيم الذى يتجنب الصغائر ، ويحطم الظلم ، ويثبت الحق ، أجب للصيحة التى ينطق بها فمى . فاذا تكلمت فعليك أن تسمع . أقم العدل ! أنت يا من قد مدحت ويا من يمتدحه الممدوحون . إكشف عنى الضر . أنظر إلى ! فانى أحمل أثقالا فوق أثقال ، حقق شكايتى فإنى فى حيرة ! »

وقد كان مدير البيت العظيم يشعر بسرور عظيم من لباقة الفلاح الخارقة للعادة ، إذ كان يعبر بحسن منطق وفصاحة لسان ، حتى لقد تركه دون أن يفصل فى قضيته برأى ، وذهب على الفور إلى البلاط حيث قابل الفرعون وقال له : « يا سيدى ! لقد عثرت على أحد أولئك الفلاحين ممن يحسنون القول بحق » . فسر الفرعون سروراً عظيما ، وكلف مدير البيت العظيم هذا أن يصحب الفلاح معه دون أن يفصل فى قضيته برأى طمعاً فى أن يرتجل له الفلاح خطباً أخرى . وكذلك أمر الفرعون بتدوين أقوال هذا الفلاح بدقة ، وأن يقدم له الطعام وكل ما يلزم لأسرته معاشه ، وأن يرسل خادماً إلى قريته ليتحقق من أن أسرته ليست فى حاجة

لى شئ خلال تلك الفترة التى سيكون الفلاح فيها بعيداً عن مسقط رأسه .

وقد كانت نتيجة ذلك أن أخذ الفلاح يلقى على أسماع رنزى مدير البيت العظيم مالا يقل عن تسع شكايات .

وعند هذه النقطة تنتهى هذه المقدمة التمثيلية ، وقد كان الغرض منها أن تضفى على ذلك المقال الاجتماعى الذى كان هدفه الإصلاح ثوباً يجعله فى صورة قصة . وبعد ذلك يبتدئ الشكاوى أو الخطب التسع التى تتألف منها جميعاً ذلك المقال الاجتماعى . وهذه الخطب تكشف لنا أولاً عن خيبة الأمل المحزنة التى صادفها الفلاح فى اعتقاده بشهرة ذلك الرجل العظيم التى كان يعرف بها ، وهى أنه لا يحيد عن العدل . فنجد الفلاح يبتدئ خطبته الثانية بالتقريع اللاذع فيقاطعه « رنزى » مهدداً إياه . أما فى خطابه الثالث فانه يعود إلى مدائح كالتى ذكرها أول رفع شكواه إلى رنزى . فاستمع لما يقول :

« يا سيدى إنك رب السماء فى صحبة حاشيتك ، و إن قوام بنى الإنسان منك ؛ لأنك كالفيضان وأنت « جعبى » (أى إله النيل) ، الذى يجعل المراعى خضراء ، و يمد الأراضى القاحلة . ضيق الخناق على السارق ، ودافع عن الفقير ، ولا تكونن كالسيل ضد الشاكى ، واحذر من قرب الآخرة ، وارغب فى أن تعيش طويلا ؛ لأن المثل السائر يقول : إن إقامة العدل هو نَفَسُ الأنف ، وأوقع العقاب على من يستحق العقاب . وليس هناك شئ يماثل استقامتك . هل الميزان يتحول ؟ وهل يميل لسانه إلى جهة ؟ . . .

« لا تنطقن كذباً ، فانك الميزان ، ولا تنكمش ؛ فانك الاستقامة . تأمل ! إنك على مستوى واحد مع الميزان فان انحرف انحرفت أيضاً . ولا تحيدن ، بل أدر السكان ، واقبض على حبل الدفة . ولا تغضبن ، بل اعمل ضد المغتصب ، وذلك العظيم ليس عظيما ما دام جشعاً . إن لسانك هو ثقل الميزان ، وقلبك هو ما يزن به ، وشفتيك ذراعاه . فاذا سترت وجهك أمام الشرس ، فمن ذا الذى يكبح الشر ؟ » وهذه الموازنة بين أخلاق مدير البيت العظيم رنزى وبين الميزان تظهر مرات متكررة فى خطب ذلك الفلاح .

أما العبرة التى تؤخذ من تلك الخطب فواضحة ؛ إذ أن مفتاح طريق الحق كان بأيدى الطبقة الحاكمة ، فاذا أخفقوا فى اتباعها فنى أى مكان آخر يمكن الحصول عليه ؟ إذ كان المرجو منهم أن يوازنوا بين الحق والباطل ثم يفصلوا

فيه بقرار عادل كالموازين الدقيقة التى لا تخطئ . ومن ذلك نعلم أن الموازين كانت تؤلف رمزاً أصبح شائع التداول فى الحياة المصرية، حتى إن كفتى الميزان كانتا على ما يظهر قد صارتا بمثابة وسيلة دقيقة لتصوير محاكمة كل روح فى عالم الآخرة .

ولسنا مبالغين إذا قلنا إن الموازين قد وجدت لأول مرة فى ذلك المقال فى تاريخ الأخلاق ، وقد بقيت مستعملة فى يد العدالة المطلقة إلى يومنا هذا . وترجع نشأة هذا الرمز إلى الظهور أولاً بين رجال الفكر فى العهد الإقطاعى بمصر، أى منذ ما يربى على أربعة آلاف سنة مضت . ولم يكن الأمر مقصورا على استعمال الميزان بوجه عام بمثابة رمز للاستقامة فى ذلك العهد الإقطاعى فحسب بل كانت أجزاؤه كذلك تستعمل على الدوام لذلك الغرض أيضاً .

ويجب أن نلاحظ هنا كذلك أن الفلاح كان يذكر مدير البيت العظيم بضرورة ظهوره أمام محاسبة الميزان الذى لا يتحيز إلى جهة ؛ إذ يقول له : « احذر قرب يوم الآخرة » . وهذا المثل من الأمثلة القليلة التى يلجأ إليها تحذيراً من الظلم و إشعاراً بما يتعرض له الظالم من المسئولية أمام الله فى الحياة الآخرة .

وقد صارت الآن تهديدات الفلاح لمدير البيت العظيم وهو يلقيها واقفاً أمام القصر فى شدتها أكثر مما يمكن احتماله ، حتى لقد أرسل خادمين ليجلدا ذلك التعس . ولكنه على الرغم من ذلك انتظر قدوم رنزى كرة أخرى بقلب ثابت لا يزعزعه خوف الضرب أو التعذيب . وعندما وقع بصره عليه واجهه بخطبة رابعة ثم تلاها بخطبة خامسة . وبالرغم من أنها كانت أقصر خطبه كلها فانها كانت ألذعها فى الاتهام . فاستمع لما يقول : « لقد نصبت لتسمع الشكاوى ، وتفصل بين المتخاصمين ، وتكبح جماح اللص ، ولكن ما تفعله هو أنك تتحالف مع اللص . والإنسان يضع ثقته فيك ، ولكنك أصبحت معتدياً . لقد نصبت سداً للفقير ، فاحترس خوف أن يغرق . ولكن تأمل ! إنك تياره السريع ، وفيضانه الجارف ! »

ولكن رنزى كان لا يزال ملازماً الصمت ؛ من أجل ذلك اضطر الفلاح أن يبتدئ خطابه السادس لاجئاً من جديد إلى عاطفة العدالة التى اتصف بها مدير البيت العظيم ، و إلى ما اشتهر به من الرأفة . فاستمع لما يقول :

« يا مدير البيت العظيم ، يا سيدى ! . . . إن كل محاكمة حقة تدحض الباطل ، وتعلو بالصدق ، وتشجع الحسنة ، وتمحو السيئة ، كالشبع عندما يأتى يقضى على الجوع ، وكالكساء يقضى على العرى ، وكالسماء تصفو بعد العاصفة الشديدة ، وتدفئ كل من شعر بالبرد ، وكالنار التى تسوى النئ ، وكالماء الذى يطفئ الظمأ ، أنظر بعينيك ! إن المحكم متلاف ، والمصلح موجد للفساد ، ومهدئ الخلافات خالق للألم ، والمغتصب يحط من قدر العدالة . »

ولما لم يجد الفلاح جواباً من رنزى على استعطافه اهتاج من جديد وأخذ يقول : « إنك متعلم ، وإنك ماهر ، وإنك عادل ، ولكن ليس فى النهب والسرقة . والآن مثلك مثل كل بنى الانسان ، كل أعماله ملتوية ومفسد الأرض كلها يمشى مستقيما إلى الأمام (لا يرى أمامه اعوجاجاً) ، وزارع الشكر يروى حقله بالأعمال الخاطئة حتى يجعل مزرعته تنمو بالكذب ، وبذلك يرى المتاعب إلى الأبد ! »

ومع ذلك فان هذه الاتهامات لم تحرك ساكناً عند مدير البيت العظيم . ولذلك أخذ الفلاح التعس يفتح فمه بصوت عال ، وألقى شكواه السابعة . فيبتدئ كالمعتاد بمدح مدير البيت العظيم ، فيقول له : « إنك سكان البلاد قاطبة ، والأرض حسب أمرك ، وإنك معادل للإله تحوت (إله العلم والمعرفة والمواقيت) تقضى دون أن تنحاز إلى جانب . يا سيدى ! كن صبوراً حتى يمكن الإنسان أن يستغيث بك لقضيته العادلة . ولا تجعلن قلبك جموحاً ، فان ذلك لا يليق بك ، فان الرجل البعيد النظر يكون حليما . » ثم ترى الفلاح يرجع فجأة على الفور إلى وصف حالته التعسة فيقول : « حقًّا ! إن جوفى للآن ، وقلبى لمفعم ، وقد طفح من جوفى تقرير عن تلك الحالة . لقد كان صدع فى السد فتدفق منه الماء ، وقد انفتح فمى للكلام . » غير أن استمرار تغاضى ذلك الحاكم وعدم اكتراثه مع ماهو مشهور عنه من عدالة ورأفة بالضعفاء ، قد زاد فى غيظ ذلك الفلاح التعس إلى حد جعله يتخذ من صمت مدير البيت العظيم عنه شاحذاً لعاطفته ، ويرى فيه دافعاً يطلق عقال ألسنة أكثر الناس لكنة وعيًّا ، فيقول مقرعاً إياه : « إن خمولك سيضلل بك ، وشراهتك ستغشك ، وإن عدم اكتراثك سيولد لك أعداء . ولكن هل يمكنك أن تجد فلاحاً آخر مثلى ؟ وهل الشاكى يقف على باب بيت الخامل ؟ على أنه لا يوجد إنسان صامت قد أنطقته ،

ولا نائم قد أيقظته ، ولا مكتئب قد نشطته ، ولا إنسان فمه مغلق قد فتحته ، ولا جاهل قد جعلته يعرف ، ولا غبى قد علمته . ومع ذلك فان الحكام هم الذين يقصون السوء ، وأرباب الخير هم أصحاب فن ليصنعوا أى شىء كائن ، ويصلوا الرءوس التى قد فصلت عن أجسامها ! »

ولما لم يكن فى مقدور ذلك الفلاح أن يكبح جماح غضبه وشدة حنقه ؛ أخذ يلقى خطابه الثامن ، واستمر فى تهديد رنزى إذ يقول : « يأيها المدير العظيم يا سيدى ! إن الناس يتحملون السقوط السحيق بسبب الطمع ، والرجل الجشع يعوزه النجاح ، ولكنه ينجح فى الخيبة ! إنك جشع وذلك لا ينسجم معك . وإنك تسرق وذلك لا يفيدك ، أنت يا من يجب عليه أن يسمح للإنسان أن يشرف على قضيته الحقة . ذلك لأن ما يقيم أودك فى بيتك ، ولأن جوفك قد ملئ . . . آه ! أنت يا من يجب عليه أن يقضى على اللص ويا من يقصى الحكام وقد نصبوا ليدرءوا السوء ، وهم حمى الساخط . والحكام قد نصبوا ليكبحوا الكذب . . . إنك تملك حقلك فى الريف ، وضياعك التى وهبها لك الملك ، وخبزك فى المخبز ، والحكام يعطونك ومع ذلك تغتصب ! هل أنت لص ؟ هل يحضر إليك بجنود لتصاحبك عند تقسيم الحقول (المسروقة) ؟ »

ومع كل ما وجهه هذا الفلاح من تقريع واتهامات لاذعة إلى هذا الحاكم فانه لم ين عن المطالبة بتحقيق العدالة ؛ ولذلك يعود من جديد مطالباً بها فى أعظم فقرة فاه بها فى ذلك المقال العظيم ؛ إذ يقول : « أقم العدل لرب العدل ، والذى عدل عدالته موجود . وأنت يأيها القلم ، وأنت يأيتها البردية ، ويأيتها الدواة ويا تحوت (رب العلم) ابتعدوا عن عمل السوء ، وعندما يكون الحسن حسناً فالأمر إذن حسن . غير أن العدل سيكون إلى الأبد ، ويذهب مع من يعمله إلى الجبانة ، وسيدفن وتطويه الأرض ، أما اسمه فلن يمحى من الأرض ، بل سيذكر للخير . وهكذا القانون التى رسمته كلمة الله العليا . »

على أن السؤال الذى ينشأ عن ذلك طبعاً بعد إلقاء هذه الكلمات الخارجة من الأعماق هو : ألا يزال هناك مجال للظلم بعد ذلك ؟ ولقد أخذ الفلاح يسأل هذا السؤال . فاستمع إليه وهو يسأل :

« هل هو ميزان ؟ إذن لا يميل . هل هو لسان الميزان ؟ إذن لا يحيد إلى جانب (لا يزن غشا) . » ثم يستمر قائلا : « وإذا حضرتُ أو حضر غيرى فخاطبه

ولا تجبين كانسان يخاطب رجلا صامتاً، أو كانسان يهاجم من لا يمكنه أن يهاجم... إنك لا تظهر الرحمة . . . إنك لا تعطينى مكافأة على تلك الخطب التى تخرج من فم الاله نفسه . انطق بالعدل ، وأقم العدل ، لأنه خطير وعظيم ويعيش طويلا ، والثقة به قد عرفت ، فهو يؤدى إلى العمر الطويل المحترم . هل الميزان يحيد ؟ فاذا كان الأمر كذلك فان ذلك يكون بسبب كفتيه اللتين تحملان ما يوزن . ولا يجوز وجود الظلم مع القانون . »

ولما لم يفه رنزى بجواب على هذه الكلمات السامية ، رفع الفلاح صوته عالياً للمرة الأخيرة وألقى مرافعته النهائية عن قضيته اليائسة ، وهى خطبته التاسعة التى يذكر فيها مدير البيت العظيم بخطر الكذب والغش إذ يقول : « و إذا مشى الكذب فى الخارج فانه يضل ، ولا يعبر فى قارب التعدية ، ولن يتقدم قيد أنملة . أما من تنمو ثروته به فلن يكون له أطفال ، ولن يكون له وارث على الأرض . ومن يسيح به فيتخذه بضاعة فلن يصل إلى بر ، وسفينته لن ترسو على مرفأ . . . » ثم يختم الفلاح خطبته بالكلمات التالية :

« لا تكونن متحيزاً ، ولا تصغين لقلبك ، ولا تسترن وجهك من إنسان تعرفه ، ولا تتعامين عن إنسان قد رأيته ، ولا تردن إنساناً يشكو إليك ، واترك هذا الخمول حتى يمكن أن تروى حكمتك القائلة « افعل الخير لمن يفعله لك » وأن تصل إلى مسامع كل الناس ، وحتى يرجع إليك القوم فيما يتعلق بالمطالبة بالحق . والأصم عن العدل لا رفيق له . والرجل الجشع لا فراغ لديه . وذلك الذى يوجه إليك التهمة يصير رجلا فقيراً ، والفقير يصير شاكياً ، والعدو يصبح ذابحاً للفلاح . تأمل ! إنى أشكو إليك ، وأنت لاتسمع شكواى ، فسأذهب وأشكو إلى أنوبيس . »

ولما كان أنوبيس هو إله الموتى ، فان الفلاح كان يقصد من ذهابه إليه أنه سينتحر . وعندئذ يرسل مدير البيت العظيم خادمه على الفور ليجئ بالفلاح أثناء عزمه على الرحيل . و إذذاك تبادلا معاً بعض العبارات المبهمة فى المتن . على أن رنزى فى الوقت نفسه كان قد دوّن فى بردية أخرى كل شكايات الفلاح حسب تواريخها .

والمفروض أن ما انحدر إلينا من تلك الوثائق هو نسخة من تلك البردية . ولكن مما يؤسف له أن خاتمتها كانت ممزقة كل ممزق . و يمكننا أن ندرك أن

لفائف البردى التى أعطاها أمناء أسرار رنزى إياه هى التى حملها رنزى هذا إلى الملك . وقد وجدها الملك سارة لقلبه أكثر من اى شئ فى البلاد ، وبعد ذلك يأمر الفرعون مدير البيت العظيم أن يفصل فى قضية الفلاح ، وإذذاك يحضر المختصون بهذا العمل سجل الضرائب الذى يحدد ممتلكات ذلك الفلاح الرسمية ، ويبين موقفه القانونى والاجتماعى ، وعدد أفراد أسرته ، ومقدار ثروته ، ثم يعقب ذلك فى البردية بعض كلمات مفتتة يقل عددها عن اثنتىعشرة كلمة ، يمكننا أن نفهم منها على وجه التقريب أن تحوتى نخت قد عوقب ، وأن ممتلكات ذلك الموظف الجشع المغتصب قد أعطيها الفلاح .

ولأمر هام نجد أن أشراف رجال البلاط الفرعونى منذ ما يربى على أربعة آلاف سنة مضت مهتمون بما فيه الكفاية لإسعاد حال الطبقات الدنيا ، حتى إنهم كانوا يكلفون أنفسهم مشقة تدوين مثل تلك المقالات والاعتناء بحفظها، وهى لم تكن فى الواقع إلا دعاية لنظام قوامه العدل والشفقة بالفقراء . وأمثال أولئك الرجال كانوا حملة أقلام لاعلان حرب مقدسة مطالبين فيها بالعدالة الاجتماعية . وقد جعلوا ذلك المقال بالذات ممتعاً فى قراءته لطبقة الأغنياء الموجه إليهم ذلك المقال . وبالرغم مما يجده الأثرى من الغموض المستمر فى لغته وأسلوبه البليغ ، واستعاراته القوية ، وتشبيهاته القريبة مما صير فصاحة ذلك الفلاح غامضة المعنى فى أذهان عالمنا الحديث ، فان ذلك المقال قد اكتسب مكانة جعلته أدباً من الطراز الراقى فى عصره . ولا شك فى أنه كتب بالأسلوب الذى كان مستحسنا عند أهل ذلك العصر ؛ على أن ذلك التهكم اللاذع الذى يبدو فى نواحيه كان مما يزيد فى شهرته الأدبية عند قدماء المصريين الذين كانوا محبين بطبيعتهم للتهكم ، ولكنه مع ذلك كان أدباً يرمى إلى غرض خلقى . وقصة ذلك الفلاح الفصيح تعد تصويراً حيًّا ناطقاً عن عجز أولئك الموظفين الأمناء إذ لم يكن يشد أزرهم ملك عادل حازم رءوف عليم بخبايا الأمور يعرف ما يجرى فى مختلف بقاع بلاده من أصدقاء أوفياء لا موظفين متملقين يصورون له الحقائق مقلوبة ويعرضونها كما تشاء أهواؤهم وتتفق مع مصالحهم ومصالح من يلوذ بهم . والآن نسائل هل أعطى الكاتب الاجتماعى القديم درساً لمصرى الجيل الحاضر ؟

سليم حسن